الفصل الرابع

# منتخبات من آثار ابن قتيبة

## ١ ـ ابن قتيبة الفقيه العالم

## فضل القرآن

وإنَّما يعرفُ فَضلَ القُرآنِ من كَثُرَ نظرُه ، واتَّسعَ علمُه ، وفهِمَ مذاهبَ العرب وافتنانَها فى الأساليب ، وما خصَّ اللهُ به لغتَها دون جميع اللغاتِ ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمَّةٌ أوتيتْ من العارضة[١] ، والبيان ، واتِّساعِ المجالِ ، ما أُوتِيَتْهُ العربُ خِصِّيصَى من الله لما أرْهَصَهُ فى الرَّسُول ، وأرادَه من إقامةِ الدَّليل على نُبوَّتِه بالكتاب ، فجعله عَلَمه كما جعل عَلَم كل نَبِيّ من المُرْسَلين من أشْبهِ الأمورِ بما فى زمانِه المبعوثِ فيه .

فكان لموسى فَلقُ البحر ، واليدُ ، والعَصا ، وتَفجُّرُ الحجَرِ فى التيهِ بالماء الرَّواءِ[٢] ، إلى سائرِ أعلامهِ زمنَ السِّحْرِ .

وكان لعيسى إحياءُ الموْتَى ، وخَلْقُ الطَّيْر من الطين ، وإبْرَاءُ الأكْمَه[٣] والأبْرصِ ، إلى سائرِ أعلامه زمَنَ الطِّبِّ .

وكانَ لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم الكتابُ الذى لو اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثلهِ لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، إلى سائرِ أعلامه زمنَ البيان[٤] .

---

(١) العارضة : قوة الكلام والرأى الجيد .

(٢) الرواء : العذب .

(٣) الأكمه : الذى يولد أعمى .

(٤) « مشكل القرآن » .

وللعربِ المجازاتُ فى الكلام ، ومعناها طُرُقُ القولِ ومآخذهُ : ففيها الاستعارة والتّمثيل ، والقَلْبُ ، والتّقديمُ ، والتّأخيرُ ، والحذف ، والتكرارُ ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاحُ ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبةُ الواحدِ مخاطبةَ الجميع ، والجميعَ خطابَ الواحد ، والواحدَ والجميعَ خطابَ الاثنين ، والقَصْد بلفظ الخصوص لمعنى العمومِ ، وبلفظ العموم ، لمعنى الخُصوص . . .

وبكلّ هذه المذاهبِ نزَل القرآن ، ولذلك لا يقدرُ أحدٌ من التّراجم على أن ينقله إلى شىء من الألْسنةِ كما نُقِلَ الإنجيلُ من السّريانيّة إلى الحبَشيّةِ والرُّوميةِ ، وتُرجمت التّوراة والزبورُ ، وسائرُ كتبِ الله تعالى بالعربية ؛ لأنّ العَجَمَ لم تتّسعْ فى المجازِ اتساعَ العرب .

ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقلَ قولَه تعالى : ﴿ وإمّا تخافَنّ من قوم خيانَةً فانْبِذْ إليهم على سَواء ﴾ لم تستطعْ أن تأتىَ بهذه الألفاظِ مؤدّيةً عن المعنى الذى أودِعَتْهُ حتّى تبسطَ مجموعَها ، وتصِلَ مقطوعَها وتُظْهِرَ مستورَها فتقول : إن كان بينك وبين قوم هُدْنَةٌ وعهدٌ فخفْتَ منهم خيانةً ونَقضًا فأعْلِمهُمْ أنك قد نقضتَ ما شرطتَ لهم ، وآذِنْهُمْ بالحربِ ؛ لتكون أنت وهم فى العلم بالنّقْض على استْواء .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَضرَبْنَا على آذانِهم فى الكهْفِ سِنينَ عَدَدًا ﴾ إن أردتَ أن تنقله بلفظه لم يفهمْه المنقولُ إليه ، فإن قلتَ : أنَمْنَاهُمْ سنينَ عَدَدًا لكنتَ مترجمًا للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله : ﴿ والذين إذا ذكّرُوا بآياتِ ربّهمْ لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا ﴾ إن ترْجمتَهُ بمثل لفظه استَغْلَقَ ، وإن قلت : لم يتغافلوا أدّيْتَ المعنى بلفظٍ آخر [1].

---

(١) « مشكل القرآن » .

# الاحتجاج للقرآن

فأمّا ما نَحلُوه من التّناقُض في مثل قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يُسأَلُ عن ذنبه إنْسٌ ولا جانّ ﴾ . وهو يقولُ في موضع آخر : ﴿ فوربِّكَ لنسألنّهُم أجمعينَ عمّا كانوا يعمَلُون ﴾ فالجوابُ في ذلك أنّ يومَ القيامة يكون كما قال الله تعالى : ﴿ مقدارُه خمسينَ ألفَ سنة ﴾ ، ففي مثل هذا اليوم يُسألون ، وفيه لا يُسألون ، لأنّهم حين يُعرَضُون يُوقَفُون على الذُّنوب ويحاسَبُون . فإذا انتهتْ المسألةُ ووجبتْ الحجّةُ : ﴿ انشقّت السّماءُ فكانتْ وَرْدَةً كالدِّهان ﴾ وانقطع الكلامُ ، وذهبَ الخصام ؛ واسودّتْ وجوهُ قومٍ وابيضّت وجوهُ آخرين ، وعُرِفَ الفريقانِ بسيماهم وتطايرت الصُّحف من الأيدى ، فآخِذٌ ذاتَ اليمينِ إلى الجنّة ، وآخذٌ ذات الشّمالِ إلى النّار . وكذلك قال ابن عبّاس رضى الله عنه في قوله : ﴿ فيومئذ لا يُسألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانّ ﴾ ، قال : هو موطنٌ لا يُسألُون فيه . ومثله : ولا يُسألُ عن ذُنُوبِهم المجرمُون ﴾ . . .

وقوله : ﴿ قُلْ أئنّكم لتكفُرون بالذى خلَقَ الأرضَ في يومَيْن ، وتجعلونَ له أنْداداً ذلك ربُّ العالمين . وجعَلَ فيها رواسيَ من فوقِها وباركَ فيها وقدر فيها أقواتَها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السّماءِ وهى دُخانٌ فقال لها وللأرض ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ ، فدلّتْ هذه الآيات على أنه خلَقَ الأرض قبل السّماء .

وقال في موضع آخر : ﴿ أمِ السّماءُ بناها رَفَعَ سَمْكَها فسوّاها وأغْطَشَ ليْلَها وأخْرَجَ ضُحاها والأرضَ بعد ذلك دَحاها ﴾ ، فدلّت هذه الآية على أنه خلق السّماءَ قبل الأرض .

وليس على كتابِ الله تحريفُ الجاهلين ، وغلَطُ المتأوّلين ، وإنما كان يجِد الطّاعنُ مُتعلَّقاً ومقالاً لو قال : والأرضَ بعد ذلك خلَقَها أو ابتدأها

أو أنشأها ، وإنما : ﴿ دَحَاها ﴾ فابتدأ الخلق للأرض على ما فى الآى الأوّل فى يومين ، ثم خلق السماوات وكانت دُخانًا فى يومين ثم دَحَا بعد ذلك الأرض أى بسطَها ومدّها ، وكانت رَبْوَةً مجتمعةً ، وأرْسَاها بالجبال وأنْبَتَ فيها النَّباتَ فى يومين ، فتلك ستَّةُ أيام سواءً للسَّائلين ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال مجاهد : « بعد ذلك » فى هذا الموضع ، بمعنى « مع ذلك » و « مع » و « بعد » فى كلام العرب سواء . . .

وأمَّا قوله : ﴿ مَثَلُ الجنَّة التى وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ ، ولم يأت بالشَّىء الذى جعل له الجنَّة مَثَلاً ، فإن أصل المثَل ما ذهبوا إليه من معنى المِثْل تقول : هذا مِثْلُ الشىء ومَثَلُهُ ، كما تقول : هذا شِبْهُ الشىء وشَبَهُهُ .

ثم قد يصير المِثْلُ بمعنى صورة الشىء وصفتِه ، وكذلك المثال والتِّمثالُ يقالُ للمرأة الرَّائقة : كأنَّها مِثالٌ ، وكأنَّها تِمثالٌ ، أى صورة ، كما يقالُ كأنَّها دُمْيَة ، أى صورة ، وإنما هى مَثَل ، وقد مَثَّلتُ لَكَ كذا أى صَوَّرْتُه ووصفتُه .

فأراد الله بقوله : مَثَلُ الجنة ، أى صورتُها وصفتُها .

ورُوىَ أن عليًّا رحمه الله كان يقرأ : مِثالُ الجنَّة ، وهو بمنزلة مَثَل ، إلاّ أنه أوضح وأقربُ فى أفهام الناس إلى المعنى الذى تأوّلناه فى مَثَل .

ونحوه قوله : ﴿ محمَّدٌ رسولُ الله والَّذين معه أشدَّاءُ على الكُفَّار رُحَماءُ بينهم تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبتغُونَ فَضْلاً من الله ورِضْوانًا ، سِماهُم فى وجوهِهِم من أثَرِ السجُود ﴾ ، ثم قال : ﴿ ذلك مَثَلُهم فى التَّوْراة ومَثَلُهم فى الإنجيل ﴾ ، أى ذلك وصْفُهم لأنه يضربُ لهم مَثَلاً فى أول الكلام ، فيقول : ﴿ ذلك مَثَلُهم ﴾ وإنما وصفهم وحلاّهم ثم قال : ذلك مَثَلُهم أى وصفُهم .

وقوله : ﴿ يا أيها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا له ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن الذينَ تَدْعُون من دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبابًا ولو اجْتَمَعُوا له ﴾ ، ولم يأت بالمثَل ، لأن فى الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس مثلكم مثل من عَبَدَ آلِهةً اجتمعت لأنْ تَخْلُقَ ذُبابًا فلم تقدر عليه ، وسَلَبَهَا الذُّبابُ شيئًا فلم تَستنقِذْه منه[1] . . .

## متشابه القرآن

وأمَّا قولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن ، من أراد بالقرآن لعباده الهدى والتِّبيان ؟

فالجواب عنه : أنَّ القرآن نزلَ بألفاظِ العَرَب ومعانيها ، ومذاهبِها فى الإيجاز والاختصار والإطالة والتَّوكيد ، والإشارةِ إلى الشىء ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهرَ عليه إلاَّ اللَّقِنُ[2] ، وإظهارِ بعضها ، وضربِ الأمثال لما خفِى .

ولو كان القرآنُ كلّه ظاهرًا مكشوفًا حتى يَستَوِى فى معرفته العالمُ والجاهلُ لبَطَلَ التفاضُلُ بين الناس ، وسقطت المِحْنةُ ، وماتت الخواطِر .

ومع الحاجةِ تقع الفكرةُ والحيلة ، ومع الكِفايةِ يقع العَجْز والبَلادة وقالوا : عَيْب الغِنَى أنَّهُ يُورِثُ البَلَه ، وفضيلةُ الفقرِ أنه يبعث الحيلة .

وقال أكْثَمُ بنُ صَيْفِىٍّ : ما يسُرُّنى أنى مَكْفِىٌّ كُلَّ أمر الدُّنْيا . قيل له : ولِمَ ؟ قال : أكرهُ عادةَ العَجْز .

وكلُّ بابٍ من أبوابِ العلم : من الفِقْهِ والحسابِ والفرائضِ والنَّحْو

---

(١) « مشكل القرآن » .

(٢) اللقن : السريع الفهم .

فمنه ما يَجِلُّ، ومنه ما يَدِقُّ ليرتقي المتعلِّمُ فيه رُتبةً بعد رُتبة، حتى يبلغَ مُنْتَهاه، ويُدْرِكَ أقصاه، ولتكون للعالِمِ فضيلةُ النظرِ، وحسنُ الاستخراج، ولِتَقَعَ المثوبةُ من اللهِ على حسن العناية.

ولو كانَ كل فنّ من العلوم شيئًا واحدًا، لم يكن عالمٌ ولا متعلّم، ولا خَفِيٌّ ولا جَلِيٌّ، لأن فضائلَ الأشياء تعرفُ بأضدادِها، فالخير يُعْرَف بالشرّ، والنَّفْع بالضُّر، والحلو بالمُرّ، والقليلُ بالكثير، والصغير بالكبير، والباطِنُ بالظاهر.

وعلى هذا المثال كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكلامُ صحابته والتَّابعين، وأشعارُ الشعراء، وكلامُ الخطباء، ليس منه شيءٌ، إلاّ وقد يأتي فيه المعنى اللطيف الذي يتحيّرُ فيه العالِمُ المتقدّمُ، ويقرُّ بالقصورِ عنه النَّقّابُ المبرّزُ . . .

ولَسْنَا ممّنْ يَزْعُمُ أن المتشابهَ في القرآن لا يعلَمُه الرّاسِخُونَ في العلم. وهذا غلطٌ من مُتأوِّليه على اللغة والمعنى، ولم يُنزِلِ اللهُ شيئًا من القرآنِ إلاّ لينفعَ به عبادَه، ويدلّ به على معنًى أرادَه؛ فلو كان المتشابه لا يعلمه غيرُه لَلَزِمَنَا للطّاعِنِ مقالٌ، وتعلّق علينا بعِلّة.

وهل يجوزُ لأحد أن يقول: إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم لم يكن يعرف المتشابه؛ وإذا جاز أن يعرفَهُ مع قول الله تعالى: ﴿وما يعلمُ تأويلَهُ إلا اللهُ﴾ جاز أن يعرفه الرَّبّانيون من صحابته، فقد علّم عليًّا التَّفْسيرَ، ودعا لابْن عبّاس فقال: «اللّهُمّ علمْهُ التّأويلَ، وفَقِّهْهُ في الدّين» . . .

وبعد فإنّا لم نَرَ المفسّرين توقّفُوا عن شيءٍ من القرآن فقالوا: هذا متشابهٌ لا يعلمه إلاّ الله، بل أمَرُّوه كُلَّهُ على التفسير، حتى فسّروا الحروفَ المقطّعةَ في أوائل السّوَرِ مثل: الٓر، وحم، وطه، وأشباه ذلك...[1].

---

(١) «مشكل القرآن».

## القول فى المجاز

وأمّا المجازُ فمن جهته غَلِطَ كثيرٌ من النّاس فى التّأويل ؛ وتشعّبت بهم الطّرق واختلفت النِّحَل ، فالنّصارى تذهبُ فى قول المسيح عليه السّلام فى الإنجيل : «أدعو أبى ، وأذهب إلى أبى» وأشباه هذا ، إلى أُبُوّة الولادة.

ولو كان المسيحُ قالَ هذا فى نفسه خاصةً دون غيره ، ما جازَ لهم أن يتأوّلُوه هذا التّأويلَ فى « الله » — تبارك وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا — مع سعة المجاز ، فكيفَ وهو يقولهُ فى كثير من المواضع لغيره . كقوله حين فتح فاهُ بالوحى : « إذا تصدّقْتَ فلا تُعلم شمالك بما فعلت يمينُك فإنّ أباكَ الذى يرى الخَفِيّاتِ يَجْزيك به علانيةً ، وإذا صلّيْتُم فقولوا : يا أبانا الذى فى السّماء ليتقدّس اسمُك ، وإذا صُمْتَ فاغْسل وجهكَ وادهن رأسَك لئلاّ يعلمَ بذلك غيرُ أبيك » .

وقد قرءوا فى الزّبُور أنّ الله تبارك وتعالى قال لداودَ عليه السّلام : « سيُولدُ لك غلامٌ يُسمّى لى ابْنًا وأسمّى لهُ أبًا » .

وفى التّوْراة أنّه قال ليعقوبَ عليه السّلام : « أنت بِكْرِى » . وتأويل هذا أنّه فى رحمته وبِرّه وعَطْفِه على عباده الصّالحين ، كالأبِ الرّحيم لولده . وكذلك قال المسيحُ للماء : « هذا أبى » ، للخبز : « هذا أمى » : لأنّ قوام الأبدان بهما ، وبقاءَ الروح عليهما ، فهما كالأبوين اللذين منهما النشأة وبِحَضانتهما النماءُ .

وكانت العربُ تُسمّى الأرض أمًّا لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجِعُهم ، ومنها أقواتُهم وفيها كفايتُهم . وقال أميّةُ بن أبى الصّلْت :

والأرضُ مَعْقِلُنا وكانت أمّنَا ... فيها مقابِرُنا وفيها نُولَدُ

وقال يذكرها :

منها خُلِقْنَا وكانتْ أمّنَا خُلِقتْ ... ونحن أبناؤُها لو أنّنَا شُكُرُ

هىَ القَرارُ فما نَبْغى لها بَدَلاً ... ما أرْحمَ الأرضَ إلاّ أنّنا كُفُرُ

وقال الله تعالى فى الكافر : ﴿ فأمُّه هاويةٌ ﴾ لما كانت الأمّ كافلةَ الولدِ وغاذيته ، ومأواه ومربِّيتَه ، وكانت النَّار للكافر كذلك — جعلها أُمَّه . . .

وأمَّا الطَّاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنَّهم زَعَمُوا أنَّه كَذِب ، لأن الجدارَ لا يريدُ ، والقريةَ لا تُسأل .

وهذا من أشْنَعِ جهالاتِهِمْ ، وأدلّها على سُوء نظرهم ، وقلّةِ أفهامهِم . ولو كان المجازُ كَذِبًا ، وكلُّ فعل يُنْسَبُ إلى غيرِ الحيوان باطلاً — كان أكثرُ كلامنا فاسدًا ؛ لأنَّا نقولُ : نَبَتَ البَقْلُ ، وطالت الشَّجرة ، وأيْنَعَتِ الثَّمرةُ ، وأقام الجبل ورخُصَ السعْرُ .

ونقول : كان هذا الفعلُ منك فى وقتِ كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كُوِّن .

وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حَدَث ، والله جلّ وعزّ قبل كل شىء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعدَ أن لم يكن . . .

* * *

ولو قلنا للمُنْكِرِ لقوله : ﴿ جدارًا يريدُ أن ينقضّ ﴾ : كيفَ كنتَ أنتَ قائلاً فى جدارٍ رأيتَهُ على شَفَا انْهيار : رأيتَ جدارًا ماذا ؟ لم يَجِدْ بُدًّا من أن يقول : جدارًا يَهُمُّ أن يَنْقَضّ . وأيًّا ما قال فقد جعله فاعلاً ولا أحْسِبُه يَصلُ إلى هذا المعنى فى شىء من لغاتِ العجم إلاّ بمثلِ هذه الألفاظ .

وأنشدنى السِّجستانى عن أبى عبيدةَ فى مثلِ قولِ اللهِ : ﴿ يريد أن ينقضّ ﴾ :

يُريدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبى بَـراءٍ ويرغَبُ عن دِماء بَنِى عَقِيلِ

وأنشد الفراء :

إنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِى بِجُمْلٍ لزمَانٌ يَهُمُّ بالإحْسَانِ

والعرب تقول : بأرض فلانٍ شجرٌ قد صاح ، أى طال ؛ لمَّا تبيَّنَ الشَّجرُ للنَّاظر بطولِه ، ودلَّ على نفسه ، جعله كأنَّهُ صائحٌ ؛ يدُلُّ على نفسه بصوته . . . [1] .

## فى سورة سبأ

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ .

تأويله : أن إبليس لما سأل الله تبارك وتعالى النَّظِرَةَ فأنْظَرَهُ قال : ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[2] آذانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَلأَتَّخِذَنَّ مِنْهُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ، وليس هو فى وقتِ هذه المقالة مستيقنًا أنَّ ما قدَّره الله فيهم يتمُّ ، وإنَّما قاله ظانًّا ، فلمَّا اتبعوه وأطاعُوه صدق ما ظنَّه عليهم أى فيهم ، ثُم قال الله : وما كان تسليطُنا إيَّاه إلاَّ لنعلم من يؤمن أى المؤمنين من الشَّاكين .

وعِلْمُ الله تعالى نوعان :

أحدُهما عِلْمُ ما يكونُ من إيمانِ المؤمنين ، وكُفْرِ الكافرين ، وذُنوبِ العاصين ، وطاعات المطيعين قبل أن تكون . وهذا عِلْمٌ لا تجبُ به حجّة ، ولا تقع عليه مَثُوبةٌ ولا عقوبة .

والآخر : عِلْمُ هذه الأمورِ ظاهرة موجودة ، فيحقّ القول ويقعُ بوقوعها الجزاء ، فأراد جلّ وعزَّ : ما سلَّطناه عليهم إلاّ لنعلم إيمان المؤمنين ظاهرًا موجودًا ، وكفر الكافرين ظاهرًا موجودًا .

---

(١) « مشكل القرآن » .
(٢) البتك : القطع .

وكذلك قولُه سُبْحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] أى يعلم جهاده وصبره موجودًا ، يجبُ له به الثَّواب .

وقوله سُبْحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[2] .

تأويله أنَّ المشْركين قالوا : إنَّ محمَّدًا مجنونٌ وساحِر ، وأشباه هذا من خَرْصهم[3] فقال اللهُ جلَّ وعزَّ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : قلْ لهم : اعتبروا أمرى بواحدة ، وهى أن تنصحُوا لأنفسكم ، ولا يميل بكم هوًى عن حقٍّ فتقوموا لله وفى ذاته مقامًا يخلو فيه الرَّجل منكم بصاحبه فيقول له : هلم فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل جِنَّة قط ، أو جربنا عليه كَذِبًا ؟ فهذا موضعُ قيامهم مَثْنَى .

ثم ينفردُ كلُّ واحدٍ عن صاحبه ، فيفكّر وينظرُ ويعتبرُ ؛ فهذا موضع قيامهم فُرادى ، فإن فى ذلك ما دلَّهم على أنَّه نذير .

وكلُّ من تحيَّرَ فى أمرٍ قد اشْتبه عليه واسْتَبْهم ، أخرجه من الحَيْرة فيه : أن يسأل ويناظر ثم يفكر ويعتبر .

## القول فى الشراب

وأمَّا ما نذهبُ إليه ونَراهُ عَدْلاً من القول ، خارجًا من الإفراطِ والتَّقْصير ، فتحريمُ الخمر بالكتاب والسنة ، وكراهة ما أفترَ وأخْدَرَ من الأشربة تأديبًا . والمحرمُ شيئان : شيءٌ حرَّمهُ اللهُ تعالى نصًّا فى القرآن ، كالميتةِ ، والدَّمِ ، ولحم الخنزير ، والخمر ، وهذا فرضٌ على المسلمين أن

(١) سورة آل عمران ١٤٢ .
(٢) سورة سبأ ٤٦ .
(٣) خرصهم : كذبهم .

يجتنبوهُ ولا يطعموه ، فمن طعم منه شيئًا عامدًا ، غير مستغفرٍ منه ولا نادمٍ عليه ، فالنَّارُ مَثْواهُ ، إلا أن تلحقَهُ رحمةُ اللهِ التي وسعت كلَّ شيءٍ ، وعفوُه الذي لا ييأسُ منه إلاَّ الكافرون .

ومثلُ هذا من المحرم الفرائضُ نحو الصَّلواتِ الخمس ، وزكاةِ المال ، وصوم شهرِ رمضان ، ليس لأحدٍ أن يتركَ من هذا شيئًا ، فمَنْ تركَه عامدًا ، ثم لقي اللهَ غير مستغفرٍ منه ولا نادم ، فهو بحالِ الأوَّل .

والمحرَّمُ الآخرُ ، شيءٌ حرَّمهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، كسباعِ الطَّيْر ، والوحش ، والحُمُرِ الأهليَّة ، وكتحريمه الحريرَ والذهَب والدِّيباج ، وهذا واجبٌ على المسلمين أن يُحرِّموه ، وليس كوجوبِ الأوَّل ، ولا التغليظُ فيه على من خالفَ ، كالتغليظ في الأول ، وقد أتت الرخصُ في أوله كالقليلِ من الدِّيباج يكون في الثَّوْبِ والقليل من الحرير .

ويعد المحرم بالسنَّة شيءٌ نهى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عنه ، وأمر به على جهة التأديب ، فالعمل به فضيلةٌ ومَثُوبة ، وليس على تاركه عقوبةٌ ، كأمره بالتلحِّي ونهيه عن الامتعاط [1] . وكنهيه عن لحوم الجلاَّلة [2] وعن كسب الحجام ، وهذا ليس مما حرَّمَ اللهُ تعالى ، ولا ممَّا حرَّم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

والأشربة بهذا السبيل ما حدها الخمر ، وهي محرَّمةٌ بكتاب الله تعالى ، كما حرِّمت الميتة ، والدَّم ، ولحم الخنزير ، لا يحل منها قليلٌ ولا كثير ، حتى تفسدَ ويفارقها العرضُ الذي حرَّمها .

والخمر نوعان : أحدهما مجمعٌ عليه ، والآخر مختلف فيه ، فأمَّا المجمعُ عليه فهو ما غلا من عصير العنب من غير أن تصيبه النَّار ، أجمع المسلمون جميعًا على أن هذا خمرٌ لا يحلُّ منه شيء ، ولا يستعملُ بطعام ولا شراب ، ولا دواء حتى ينقلبَ فيصيرَ خلاًّ .

---

(١) من معط الشعر أي نتفه .

(٢) الجلالة : البقرة تتبع النجاسات .

والجنس الآخر المختلف فيه ، هو نقيعُ الزّبيب إذا اشتدّ ، ونقيع التّمْر إذا صلب ، وهو السُّكرُ . . . يقول بعض الناس : ليس ذاك بخمر ... وقال آخرون : هو خمرٌ ، وهذا هو القول الأوْلى[1] .

## رأى ابن قتيبة فى الجاحظ

ثم نصيرُ إلى الجاحظ وهو آخرُ المتكلّمين ، والمعايرُ على المتقدّمين ، وأحسَنُهم للحجّة استثارةً ، وأشدُّهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظُم ، وتصغير العظيم حتى يَصْغُر . ويبلغُ به الاقتدارُ إلى أن يعمِلَ الشيء ونقيضَه ، ويحتجّ لفضل السّودان على البيضان ، وتجده يَحتَجّ مرةً للعثمانية على الرّافضة ، ومرّةً للزيديّة على العثمانية وأهل السنّة ، ومرّةً يُفَضّلُ عليًّا رضى الله عنه ، ومرّةً يؤخرهُ ، ويقول : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويُتْبعُه قال الجمّاز ، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويجلُّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن أن يُذكر فى كتاب ذُكرا فيه ، فكيف فى ورقة ، أو بعد سطرٍ وسطرين . ويعمل كتابًا يذكرُ فيه حجج النّصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوّزَ فى الحجّة كأنه إنّما أراد تَنْبِيهَهُمْ على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين .

وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعَبَث ، يريد بذلك استمالةَ الأحداث وشُرّابِ النّبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاءً لا يَخفى على أهلِ العلم ، كذكره كبدَ الحوت وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوّده المشركون ، وكان يجب أن يبيّضهُ المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصّحيفة التى كان فيها المنزلُ فى الرّقاع تحت سرير

(١) كتاب « الأشربة » .

عائشة فأكلتها الشّاةُ ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى تنادمِ الدّيكِ والغراب ، ودفن الهدهد أمّه فى رأسه ، وتسبيح الضّفْدع ، وطَوْق الحمامة وأشباه هذا مما سنذكره بعدُ إن شاء الله — وهو مع هذا من أكذب الأمةِ ، وأوضعهم لحديثٍ ، وأنصرهم لباطل .

ومن علم رحمكَ الله أن كلامه من عمله قلّ إلا فيما ينفعُه ، ومن أيقن أنه مسئولٌ عمّا ألّفَ ، وعمّا كتبَ لم يعمل الشيءَ وضدَّه ، ولم يستفرغ مجهودَه فى تثبيتِ الباطلِ عنده . وأنشدنى الرياشيّ :

ولا تكتبْ بخطّكَ غيرَ شيءٍ يَسرُّكَ فى القيامةِ أن تراهُ[1]

## ٢ — ابن قتيبة العريف

تطرق ابن قتيبة فى بعض كتبه للتاريخ والمعارف العامة فنراه فى أحد الفصول من كتاب « المعارف » يذكر المساجد وتاريخها وكيفية بنائها .

### الكعبة

ذكرَ وهْبُ بنُ منبه أنّ اللهَ تبارك وتعالى ، لمّا أهْبَطَ آدمَ إلى الأرض ، حزنَ واشتدّ بكاؤه على الجنّة ، فعزّاهُ الله بخيمةٍ من خيامِ الجنّة ، فوضعَهَا له بمكّة فى موضعِ الكعبة ، قبل أن تكونَ الكعبة ، وكانت الخيمةُ ياقوتةً حمراءَ من ياقوتِ الجنّة ، فيها قناديلُ من ذَهَبٍ من تبْرِ الجنّة ، ونزل معها الرّكن يومئذ ، وهو ياقوتةٌ بيضاءُ ، وكان كرسيًّا لآدمَ يجلسُ عليه ، فلمّا كان الغَرَقُ زَمنَ نوح عليه السّلام ، رفع ومكثت الأرضُ خرابًا ألفى سنة ، حتّى أمرَ اللهُ ، تبارك وتعالى ، إبراهيمَ أن يبنيَ بيته ، فجاءت السكينة كأنّها سَحابةٌ فيها رأسٌ يتكلّم ، له وجهٌ كوجهِ الإنسان ، فقالت : يا إبراهيمُ خُذْ ظلّى فابْنِ عليه ، فبنى

(١) كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

هو وإسماعيلُ البيتَ ، ولم تزلْ خيمةُ آدمَ عليه السّلام ، إلى أن قُبِض ، ثم رفعها الله إليه ، وبنى بنو آدمَ من بعده في موضعها بيتًا من الطّين والحجارة ، ثم نسفه الغرق فعفى مكانه ، حتّى ابتعثَ اللهُ تعالى إبرهيمَ عليه السّلام ، وحفَر عن قواعده وبناهُ على ظلّ الغَمامة ، فهو أوّلُ بيت وُضعَ للنّاس ، وأوّلُ من كساهُ الأنطاعَ والبُرودَ اليمانية ، أسعدُ أبو كرب الحميَرى فقال :

وكسَونا البيتَ الذى حرّمَ اللّـ ـهُ ملاءً معضّدًا وبرُودا

وبنَتهُ قُريش قبل مبعثِ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، بخمس سنين ، وبناهُ عبدُ الله بن الزُّبير بعد ما بُويعَ له بالخلافة ، فلمّا قُتل ابنُ الزُّبَيْر ، نقَضَ الحجّاجُ بنيانَ ابن الزبير ، وبنَاهُ على الأساس الأوّل ؛ ثم وسّع مسجدَ الكعبة ، أبو جعفر المنصور سنة وَلِيَ الخلافة ، ثم زادَ فيه المهدى سنة ستين ومائة .

( حدّثنى ) أبو حاتم عن الأصمعى ، عن عمر بن قيس قال : فى البيتِ من الحجرِ سبْعُ أذرع وأصابع ، أو قال وإصبعان ، قال وقال الأصمعى : قال أبو غزارة : الحجرُ الأسودُ على قدر الجدر ، يعنى ركن الكعبة الذى عند الملتزم ، وحدّثنى عنه ، عن الأعمَش عن مُجاهد قال : المسعى ، ما بين دار عباد إلى بئر ابن مطعم ، ولكنّ النّاسَ حفّوه بالبناء . قال غير واحد : ذرعُ الكعبة أربعمائة وتسعون ذراعًا مكسورة ، وذكر قوم أنّ أبى بن سالم الكلبى ، ورد مكّةَ وقريشٌ تبنى البيت وتشاجروا فى إخراج النّفقة ، فسألهم أن يولّوه ركنًا من أركانه ، فولّوه الربع الذى فيه الركن اليمانى ، فبناه فسمّى اليمانى ، وقال شاعرهم .

لنا أيمنُ البيتِ الذى تعبدونَهُ وراثة ما بقى أبىّ بن سالمِ

وأكثرُ النّاس على أنه سمّى يمانيًّا لأنه من شقّ اليمن ، والمؤذنون فيه ولد أبى محذورة[1] .

---

(١) كتاب « المعارف » .

## بيت المقدس

ذكر وَهْب أن إسحقَ بنَ إبراهيم النبيّ عليهما السلام ، أمر يعقوبَ ابنه أن لا ينكح امرأةً من الكنعانيين . وأن ينكح من بناتِ خاله لابان بن ناهر بن آزر ، وكان مسكنه الفرّان[1] فتوجّه إليه يعقوب ، فأدركه الليل فى بعض الطريق ، فباتَ متوسِّدًا حَجَرًا ، فرأى فيما يرى النَّائمُ ، سُلَّمًا منصوبًا إلى بابٍ من أبوابِ السّماءِ عند رأسه ، والملائكة تنزلُ منه ، وتعرجُ فيه ، وأوحى الله تبارك وتعالى إليه أنى أنا الله لا إله إلا أنا ، إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وقد ورَّثْتُك هذه الأرضَ المقدّسةَ وذرّيتك ، وباركتُ فيك وفيهم ، وجعلتُ فيكم الكتاب والحكمة والنبوّة ، ثم أنا معك حتى أردّك إلى هذا المكان ، وأجعله بيتًا تعبدُنى فيه وذرّيتك ، فيقال إنه بيتُ المقدس ، وبناه داود ، وأتمّه سليمان عليهما السّلام ، ثم خربه بُخْتَنَصَّر ، فمرّ به عزير ، فرآه خرابًا والقرية ، فقال أنّى يُحْيِى هذه اللهُ بعد موتها ، فأماتَهُ الله مائة عام ، وابتناه ملكٌ من ملوكِ فارس يقال له كورش[2] .

## مسجد الكوفة

لمّا نزلَ المسلمون المدائن ، وطال بها مَكْثُهُمْ ، وآذاهُم الغُبار والذّباب ، كتب عمرُ إلى سعد فى بعثه رُوَّادًا يرتادونَ منزلاً برّيًّا بحريًّا ، فإن العرب لا يُصْلِحُها من البلدان إلاّ ما أصلح الشّاةَ والبعير ، فسأل من قبله عن هذه الصّفة ، فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان ، وهو ظهرُ الكوفة ، وكانت العربُ تقولُ : أدلع البرّ لسانه فى الريف ، فما كان

(١) فران بتشديد الراء بلاد واسعة بالمغرب . (٢) كتاب « المعارف » .

يلى الفرات منه فهو الملطاط ، وما كان يلى الطين منه فهو النَّجاف . فكتب عمر إلى سعد يأمره به ، وكان نزولُهم الكوفة سنة سبع عشرة ، فالبصرة أقدمُ منها بثلاث سنين ، وزياد بن أبى سفيان هو بانى مسجد الكوفة ، ورُوِى فى بعض الحديث أن موضع مسجدها فار التنّور (١) .

## الطوال

جال ابن قتيبة فى ميادين شتّى من العلوم والمعارف وها هو ذا يسرد تاريخ الطوال من الرجال .

كان حبيبُ بن مسلمة الفهرىّ كالمشرف على دابّة لطوله .

وكان عمرُ بن الخطّاب رضى الله تعالى عنه ، كأنّهُ راكبٌ والنّاس يمشونَ لطوله .

العباسُ بن عبد المطّلب وكان يمشى فى الطوائف كأنّه عمارية على ناقة والنّاسُ كلهم دونه .

وكان جرير بن عبد الله البجلىّ ، يتفلُ فى ذروةِ البَعير من طوله ، وكانت نَعْلُه ذراعًا .

وكان عدىّ بن حاتم طويلاً إذا ركب الفرسَ كادت رِجْلُهُ تخطُّ فى الأرض .

وكان قيسُ بن سعد طويلاً جسيمًا ، وكتب ملكُ الروم إلى معاوية : أرْسِلْ إلىَّ سراويل أجسم وأطول رجلٍ عندك ، فقال معاوية ما أعلمه إلاّ قيس بن سعد ، فقال لقيس : إذا انصرفت فابعثْ إلىَّ سراويلك ، فخلعها ورمى بها إليه ، فقال : ألا بعثتَ بها من منزلك فقال :

أردتُ لكيلا يعلمَ النّاسُ أنّها ... سراويلُ قيس والوفودُ شهودُ
وأنْ لا يقولَ النّاسُ بالظنّ إنّها ... سراويل عادىٍّ نَمَتْهُ ثَمودُ

(١) كتاب « المعارف » .

وعبيد الله بن زياد، كان طويلاً لا يرى ماشيًا إلا ظنّوه راكبًا من طوله .

وكان عليّ بن عبد الله بن العباس طويلاً جميلاً ، وعجب قومٌ من طوله، فقال رجلٌ يا سبحانَ الله ! كيف نقص النّاس، ولقد أدركتُ العبّاس يطوف بهذا البيت . كأنّه فسطاط أبيض ، فحدث بذلك على فقال : كنتُ إلى منكبِ أبي : وكان أبي إلى منكبِ جدّي .

وكان جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك غسّان ، طوله اثنا عشر شبرًا ، وإذا ركب مسحتْ قدمُهُ الأرض ، وأسلم فى خلافةِ عمر ، ثم تنصّر بعد ذلك ولحق ببلاد الرّوم .

وكان عمارة بن عُقْبة الحنفيّ الخارجى ، طويلاً . ولما مات لم يجدوا سريرًا يحملونَهُ عليه ، فزادوا فى السّرير ألواحًا ، وأمّنه الحجّاج فمات بالبصرة[1].

## جوامع الآداب والأخبار

عنى ابن قتيبة بالآداب الإنسانية والقيم الأخلاقية وآداب السلوك وما إلى ذلك فجمع منها قسطاً وافراً من كتبه . وفيما يلى نبذ من ذلك :

### المحبة

قال حدّثنى أحمدُ بن الخليل ، عن محمّد بن بشّار ، بن يحيى بن سعيد . عن ثور بن يزيد . عن حبيب بن عُبيد . عن المقدام بن معديكرب ، وكان أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « إذا أحبّ أحدُكم أخاه فلْيُعْلِمْهُ أنّهُ يُحبه » .

وحدّثنى محمد بن داود . عن أبى الربيع ، عن حمّاد بن زيد ، عن ليث، عن مجاهد قال : ثلاثٌ يُصْفِينَ لك وُدّ أخيك : أنْ تبدأهُ بالسّلام

(١) كتاب « المعارف » .

إذا لقيتَه ، وتوسّعَ له فى المجلس ، وتدعوه بأحبِّ أسمائه إليه . وثلاثٌ من العىّ : أن تعيبَ على النّاس ما تأتى ، وأن ترى من النّاس ما يخفى عليك من نفسك ، وأن تؤْذى جليسَك فيما لا يَعنيك .

وكان يقال : لا يكن حبُّك كَلَفًا ولا بغْضُك تلَفًا . أى لا تُسْرف فى حبِّك وبُغْضك . ونحوه قولُ الحسن : أحبُّوا هونًا ، فإنّ أقوامًا أفرَطوا فى حبّ قوم فهلكوا . وكان يقال : من وجد دون أخيه سِتْرًا فلا يَهتِكْه .

وقال عمر بن أبى ربيعة :

أتانى هَواها قبلَ أن أعرفَ الهوَى فصادَفَ قَلْبًا فارِغًا فتمكّنا

قال عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لطُلَيْحَةَ الأسَدى : قتلتَ عُكّاشةَ ابنَ مِحْصَن ! لا يحبّك قلبى ! قال: فعاشرةٌ جميلةٌ يا أميرَ المؤمنين. فإنّ النّاسَ يتعاشرون على البَغْضاء .

وكتب رجلٌ إلى صديق له : الشّوقُ إليك وإلى عهدِ أيّامك — التى حسنتْ بك كأنّها أعياد، وقصُرَت بك حتّى كأنها ساعات — يفوتُ الصّفات ؛ وممّا جدّد الشوق وكثّر دواعيه ، تصاقبُ الدّار ، وقربُ الجوار . تمّم الله لنا النعْمة المتجدّدة فيك ، بالنظر إلى الغُرّة المباركة التى لا وحشةَ معها ولا أُنْسَ بعدها . . .

وكتب رجلٌ إلى صديق له فى فصل من كتاب : لسانى رَطْبٌ بذكرك ، ومكانُكَ من قلبى معمورٌ بمحبّتك . ونحوه قول مَعْقِل أخى أبى دُلَف لمحارق :

لعَمْرى لئن قرّتْ بقربك أعينٌ لقد سخنَتْ بالبَيْنِ منك عيونُ
فسِرْ وأقِمْ ، وقفٌ عليك مودّتى مكانُكَ من قلبى عليك مَصُونُ

وقال رجلٌ لشَبيب بن شَيْبَة : واللهِ أُحِبُّك ، قال : وما يمنعُك من

ذلك وما أنتَ لى بجار . ولا أخٍ ولا قرابة[١] ؟ يريد أن الحسدَ موكّل بالأدنى فالأدنى .

قال رجلٌ لشهْر بن حَوْشَب : إنى لأحبّك قال : ولِمَ لا تحبّنى وأنا أخوك فى كتابِ الله، ووزيرك على دين الله، ومؤونتى على غيرك ! قال بشّار :

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً ... تُدْنى إليكِ فإنَّ الحُبَّ أقصانى

وقال غيره :

أحبُّك حُبَّيْنِ لى واحدٌ ... وحبٌ لأنَّكَ أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذى أنت أهلٌ لهُ ... فحسْنٌ فَضَلْتَ به مَنْ سِواكا
وأمَّا الذى فى ضميرِ الحشا ... فلستُ أرى الحسنَ حتّى أراكا
وليسَ لىَ المنُّ فى واحدٍ ... ولكنْ لك المَنُّ فى ذَا وذَاكا

ونحوه لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

فلستُ براءٍ عيبَ ذى الوُدّ كله ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنت راضيا
وعينُ الرّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنّ عين السخْطِ تُبْدِى المساويا

وقال أعرابى :

أحبُّك حبًّا لو بُليت ببعضه ... أصَابك من وجدٍ علىَّ جُنُونُ
لطيفٌ مع الأحشاءِ أمّا نهارُهُ ... فسَبْتٌ وأمّا ليْلُه فأنينُ[٢]

وكتب رجلٌ إلى صديق له : الله يعلمُ أنّى أحبُّك لنفسك فوق محبّى إيّاك لنفسى ، ولو أنى خُيرتُ بين أمرين : أحدهمالى وعليك ، والآخر لك وعلىّ ، لأثرت المروءةَ وحسن الأحدوثة ، بإيثار حظّك على حظى ، وإنى أحبُّ وأُبغضُ لك وأوالى وأعادى فيك . . . .[٣] .

---

(١) ولا قرابة : أى ولا ذى قرابة ، وقد أنكر صاحب القاموس استعمال قرابة فى مثل هذا الموضع بدون إضافة . وتعقبه شارحه بأن استعماله بدون الإضافة جائز وورد فى فصيح الكلام من نثر وشعر .

(٢) السبت : السكون والراحة .

(٣) «عيون الأخبار» باب المحبة من كتاب الإخوان .

# آداب الأكل والطعام

رأى رجلٌ رجلاً يأكلُ لَحْماً فقال : لحمٌ يأكلُ لَحْماً ، أفٍّ لهذا عملاً !

وكان عمرُ يقول : إيّاكم وهذه المجازرَ فإنّ لها ضَراوة[1] كضراوة الخمر .

يا بُنَيَّ عوّد نفسكَ الأُثْرَة[2] ، ومجاهدةَ الهوى والشَّهْوة ، ولا تنهش نهْشَ السِّباع ، ولا تخضم خضْمَ البَراذين ولا تُدْمِن الأكل إدمان النّعاج ، ولا تَلْقَمْ لَقَم الجمال ، فإنّ الله تعالى جعلك إنساناً وفضّلك ، فلا تجعل نفسك بهيمةً ولا سَبُعاً ، واحذرْ سرعةَ الكِظَّة[3] وسَرَف البِطْنة . . .

يا بُنَيَّ ، والله ما أدّى حقَّ الرُّكوع والسجود ذو كِظَّة ، ولا خشع اللهَ ذو بِطنة ، والصومُ مصَحَّة ، والوَجَبات[4] عيشُ الصّالحين .

أى بُنَيّ ، لأمرٍ مّا طالت أعمارُ الهند ، وصحّت أبدان الأعراب . فللّه درُّ الحارث ابن كَلَدة حيث يزعُم أن الدَّواء هو الأزْم[5] ، وأنّ الدّاء إدخال الطّعام إثْر الطعام .

أى بُنَيَّ ، لِمَ صَفَتْ أذهانُ الأعراب ، وصحّت أبْدانُ الرّهْبان مع طولِ الإقامة فى الصّوامع ، حتّى لم تعرف النِّقْرِس[6] ولا وجعَ المفاصل ، ولا الأورام ، إلا لقلّة الرُّزء[7] وخفّة الزّاد . وكيف لا ترغبُ فى تدبير يجمع

(١) الضراوة بالشيء : الولع به .
(٢) الأثرة : المكرمة لأنها تؤثر أى تذكر ويأثرها قرن عن قرن .
(٣) الكظة : الامتلاء من الطعام .
(٤) الوجبات : جمع وجبة وهى الأكلة ، فى اليوم والليلة .
(٥) الأزم : ألا تدخل طعاماً على طعام .
(٦) النقرس : داء يأخذ فى الرجل .
(٧) الرزء : ما يصيبه الإنسان من الطعام .

لك صحةَ البَدن ، وذكاء الذِّهْن وصلاحَ المِعَى[1] ، وكثرةَ المال ، والقربَ من عيش الملائكة !

أى بُنىَّ لِمَ صار الضبُّ أطولَ شىءٍ ذَماءً[2] إلا لأنه يتبلَّغ بالنسيم .

أى بُنىَّ ، قد بلغتُ تسعينَ عاماً ما نَغَضَ[3] لى سن ، ولا انتشر[4] لى عَصَب ، ولا عرفتُ ذَنِين[5] أنْف ، ولا سَيَلانَ عَيْن ، ولا سَلَس بول ؛ ما لذلك علّةٌ إلا التّخفيف من الزّاد . فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنتَ تريدُ الموتَ فلا يُبعد الله إلا من ظلم نفسَه .

وقال أبو نَهْشَل : كانت لى ابنةٌ تجلس معى على المائدة ، فتُبرز كفّاً كأنها طَلْعة ، فى ذراع كأنه جُمّارة ، فلا تقعُ عينها على أكلة نفيسة إلا خصّتنى بها ، فزوّجتُها وصرت أُجْلِس معى على المائدة ابناً لى ، فيبرز كفّاً كأنها كِرْنافة ، فى ذراع كأنه كَرَبة ، فواللهِ ما إن تسبق عينى إلى لُقْمة طيبة إلا سبقتْ يده إليها . . .[6] .

## الاستنجاع بالرشوة والهدية

حدّثنى زيد بن أخزم . عن عبد الله بن داود قال سمعت سُفْيان الثورىَ يقول : إذا أردتَ أن تتزوّج فأهْدِ للأمّ ، والعرب تقول : من صانَعَ[7] لم يحتشمْ مِن طلب الحاجة .

(١) المعى : المصارين .
(٢) الذماء : بقية النفس والحركة .
(٣) نغض : قلق وتحرك .
(٤) انتشر : انتفخ .
(٥) الذنين : المخاط الرقيق يسيل من الأنف .
(٦) « عيون الأخبار » باب آداب الأكل والطعام من كتاب الطعام .
(٧) صانع : هادى .

قال ميمونُ بن ميمون : إذا كانت حاجتُك إلى كاتب فليكن رسُولك الطَّمَع .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْمَ الشىءُ الهديَّةُ أمامَ الحاجة .

وقال رؤبة :

لمَّا رأيتُ الشُّفعاءَ بَلَّدُوا　　وسألوا أميرَهم فأنكدوا(١)
نامستُهم برشوةٍ فأقْرَدُوا　　وسهَّلَ اللهُ بها ما شدَّدوا(٢)

وقال آخر :

وكنتُ إذا خاصمتُ خصماً كببْتُه　　على الوجهِ حتَّى خاصمتنى الدَّراهمُ
فلمَّا تنازَعْنا الخصومةَ غُلِّبتْ　　علىَّ وقالوا قُمْ فإنَّكَ ظالمُ(٣)

والعرب تقول فى مثل هذا المعنى : من يخطب الحسناء يُعْطِ مهراً . يريدون من طلب حاجة مهمَّة بذل فيها .

وقال بعض المحدِّثين .

ما من صديق وإن تمَّتْ صداقتُهُ　　يوماً بأنْجحَ فى الحاجاتِ من طَبَقِ
إذا تلثَّمَ بالمنديلِ منطلقاً　　لم يخش نَبْوَةَ بوَّابٍ ولا غَلَقِ
لا تكذبنَّ فإنَّ النَّاسَ مذ خُلقوا　　لرغبةٍ يكرمونَ النَّاسَ أو فَرَقِ

وقال آخر :

ما أرسل الأقوامُ فى حاجةٍ　　أمضى ولا أنجحَ من درهمِ
يأتيكَ عفواً بالذى تشتهى　　نِعم رسولُ الرَّجل المسلمِ(٤)

---

(١) بلدوا : يقال بلد الرجل إذا لم يتجه لشىء وبلد إذا نكس فى العمل وضعف . أنكدوا : لم يعطوا .

(٢) نامستهم : ساورتهم . أقردوا ذلوا وخضعوا .

(٣) غلب الرجل على صاحبه إذا حكم له عليه بالغلبة .

(٤) « عيون الأخبار » باب استنجاح الحوائج من كتاب الحوائج .

## شجاعة العرب

وأمَّا الشجاعةُ ، فإن العرب فى الجاهلية أعزُّ الأمم نفساً ، وأعزُّها حريماً وأحماها أنوفاً ، وأخشنُها جانباً ، وكانت تُغيرُ فى جنبات فارس وتطرُقها حتى تحتاج الملوك إلى مداراتها وأخذ الرهنِ منها ، والعجمُ تفخرُ بأساورة فارس ومرازبتها ، وقد كان لعَمرى لهم البأسُ والنجدة ، غير أن بين العرب وبينها فى ذلك فرقاً ؛ منه أن فارس كانت أكثرَ أموالاً ، وأجودَ سلاحاً ، وأحصن بيتاً ، وأشدَّ اجتماعاً ، وكانت تحاربُ برياسة ملك وسياسة سلطان ؛ وهذه أمورٌ تُقوّى المُنَّة وتَشُدُّ الأركان ، وتُؤيدُ القلوب ، وتثبِّتُ الأقدام . والعربُ يومئذ منقطعةٌ ليس لها نظام ، ومتفرقة ليس لها التئام . وأكثرها يُحارب راجلا بالسَّيف الكليل ، والرُّمْح الذليل ، والفارسُ منها يحارب على الفرس العربى الذى لا مسرجَ له ، وعلى السرج الرثِّ الذى لا ركابَ له . والأغلبُ على قتال العجم الرمى ، والأغلب على قتال العرب السيف والرّمحُ ، وهما أوصل فى الجد ، وأبعدُ من الفرار ، وأدلّ على الصبر .

وشجعانُهم فى الجاهلية مثلُ عُتيبة بن الحارث بن شهاب صيَّادُ الفوارس ؛ وبسطام بن قيس ، وبجير وعفان ، ابنى أبى مليل ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن وُدّ ، وأشباههم . وفى الإسلام مثل الزبير وعلىّ وطلحة ورجال من الأنصار ، وعبد الله بن حازم السلَمى ، وعبَّاد بن الحصين .

وقال : ما ظننت أن أحداً يعدلُ بألف فارس حتى رأيتُ عبَّاداً ليلةَ كابل وقطرىّ بن الفجاءة وشبيب الحرورى . وأمثال هؤلاء عدد الرمل والحصى ، ليس منهم أحدٌ إذا أنت توقَّفت على أخباره وحاله فى شجاعته ، إلا وجدته فوق كل أسوار ، والرَّجليون[1] للعرب خاصة .

---

(١) الرجليون : قوم كانوا يعدون على أرجلهم .

وقرأت فى كتب العجم أن بهرام جور كان فى حجر ملك العرب بالبادية ، فلما بلغه هلاك أبيه وأن الفرس عزموا على أن يُملّكوا غيره ، سار بالعرب حتى نزل السوادَ ، وطالبهم بالملك ، وجادلهم عنه ، حتى اعترفوا له بالحق وملّكوه .

وقد كان كسرى أغزى بنى شيبان جيشًا ، فاقتتلوا بذى قار ، فهزمت بنو شيبان أساورةَ كسرى ، فهو يوم ذى قار .

## شرف العرب على جميع الأمم

. . . أتى الله بالإسلام فابتعث نبيَّه منها ( من العرب ) النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، سيّدَ الأنبياء ، وخاتَمَ الرّسُل . وناسخ كلِّ شرعة ، وحائزَ كل فضيلة ؛ ونشر عددَها ، وجمع كلمتها ، وأمدها بملائكته ، وأيدها بقوته ، ومكّن لها فى البلاد ، وأوطأها رقاب الأمم ، وجعل فيها خلافة النبوّة ثم الإمامة خالدةً تالدة . حتى يأتى المسيحُ صلى الله عليه وسلم فيصلى خلف الإمام منها فاردةً لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتى بمثلها . وخاطبها يومئذ فقال : ﴿ كنتم خيرَ أمة أخرجت للنّاس ﴾ ، فلها فضلُ هذا الخطاب ، والأممُ طرًّا داخلةٌ عليها فيه . وأما قوله لبنى إسرائيل ﴿ فضّلكم على العالمين ﴾ فإنه من باب العام الذى أريد به الخاص ، كقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ وأنا أوّلُ المسلمين ﴾ ، وحكاية عن موسى : ﴿ وأنا أوّلُ المؤمنين ﴾ . وقد كانت الأنبياءُ قبلهما مؤمنين ومسلمين ؛ فإنما أراد موسى زمانه[1] .

---

(١) كتاب « العرب أو الرد على الشعوبية » .

## ٣ ـ ابن قتيبة الأديب اللغوى

الأدب واللغة والعلوم اللسانية كانت جانباً من الجوانب التى عالجها قلم ابن قتيبة سواء فيما ألف من كتب فى الفقه والدين والحديث أم فى الكتب التى أفردها بتلك العلوم فهو تارة المرشد الهادى إلى اللفظ الصحيح والأسلوب القويم وهو تارة أخرى المفسر لمعانى الألفاظ والحروف والناشر فى اللغة قواعدها الصحيحة .

### أدب الكاتب

أمَّا بعدُ ، حمداً لله بجميعِ محامِدِه ، والثَّناء عليه بما هو أهْلُهُ ، والصلاةُ على رسولِه المصطفى وآلِه فإنى رأيتُ أكثرَ أهلِ زمانِنا هذا عن سبيل الأدبِ ناكِبين ، ومن اسمه متطيِّرين ، ولأهْلِه كارِهين . أمَّا النَّاشئُ منهم فراغبٌ عن التعليم ، والشَّادى تاركٌ للازدياد ، والمتأدِّب فى عُنْفُوَان الشَّباب ناسٍ أو متناس ليدخل فى جُمْلةِ المجدُودين ، ويخرج فى جُمْلة المحدودين ، فالعلماءُ مغمورُون بكثرةِ الجهل ، مقموعُون حين خزى نجمُ الخير ، وكسدتْ سوقُ البرّ ، وبارتْ بضائعُ أهله ، وصار العلمُ عاراً على صاحبه ، والفضلُ نَقْصاً ، وأموالُ الملوك وَقْفاً على النفوس ، والجاهُ الذى هو زكاةُ الشَّرف يُباعُ بَيْعَ الخلق ، وآضت[1] المروءاتُ فى زخارف النجد ، وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصْطفاق المزاهر ، ومعاطاة النَّدمان ، ونُبذت الصَّنائع ، وجُهِلَ قدرُ المعروف ، وماتت الخواطر وسقطت هِمَمُ النفوس ، وزُهِدَ فى لسان الصِّدْق ، وعقد الملكوت ، فأبعدُ غاياتِ كاتبنا فى كتابته أن يكونَ حَسَنَ الخطّ قويمَ الحروف ، وأعلى منازِلِ أديبنا أن يقولَ من الشعر أبياتاً فى مدح قَيْنَة[2] أو وصف

---

(١) آض : عاد وأصبح .

(٢) القينة : الأمة والمغنية .

كاس ، وأرفع درجاتِ لطيفِنا أن يطالعَ شيئًا منْ تقويم الكواكب ، وينظر فى شىء من القضاء وحدّ المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطَّعْن ، وهو لا يعرف معناه . وعلى حديث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، وهو لا يدرى من نقله ، قد رضى عوضًا من الله وممَّا عنده بأن يقالَ فلانٌ لطيفٌ ، وفلانٌ دقيق النظر ، يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علمَ ما جَهلوه ، فهو يدعوهم الرّعاع والغُثاء[1] والغُثْرُ[2] وهو لعَمْر الله بهذه الصّفات أولَى ، وهى به ألْيق ، لأنَّه جَهِلَ وظن أنْ قد عَلِمَ ، فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجبَ بنفسه ، الزارى على الإسلام برأيه ، نظر من جهةِ النظر لأحياه الله بنور الهُدَى ، وبُلجِ اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظرَ فى علْم الكتاب ، وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته . وفى علومِ العرب ولغاتِها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المناظرون ، له ترجمةٌ تروق بلا معنى ، واسمٌ يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر والحدث الغرّ قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة ، والكيفية والكميَّة ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظنّ أن تحت هذه الألقابِ كلَّ فائدة وكلَّ لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعَرَض لا يقوم بنفسه ، ورأسُ الخطّ النقطة ، والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة : أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصّدْق والكَذب ، وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحدٌ يدخله الصّدْق والكَذِب ، وهو الخبر ، والآن حدّ الزمانين مع هذيان كثير . والخبر

---

(١) الغثاء : البالى من ورق الشجر المخالط زبد السيل والمقصود به الرعاع .

(٢) الغثر : سفلة الناس .

ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا كذا مائة من الوجوه ، فإذا أرادَ المتكلمُ أن يستعملَ بعضَ تلك الوجوه فى كلامه ، كانت وبالاً على لفظه ، وقيداً للسانه ، وعِيًّا فى المحافل ، وغفلةً عند المتناظرين ، ولقد بلغنى أنّ قومًا من أصحاب الكلام سألوا محمد بن الجهم أن يذكر لهم مسألةً من حدّ المنطق حسنةً لطيفة ، فقال لهم : ما معنى قول الحكيم : أوّلُ الفكرة آخر العمل ، وأوّل العمل آخر الفكرة ، فسألوه التأويل فقال لهم : مثل هذا رجلٌ قال : إنى صانعٌ لنفسى كِنًّا ، فوقعتْ فكرتُه على السَّقْف ، ثم انحدر فعلم أن السَّقفَ لا يكون إلاّ على حائط ، وأنّ الحائطَ لا يقوم إلاّ على أسّ ، وأنّ الأسّ لا يقوم إلاّ على أصْل ، ثم ابتدأ فى العمل بالأصل ، ثم بالأسّ ، ثم بالحائط ، ثم بالسَّقف ، فكان ابتداءُ تفكّره آخرَ عمله ، وآخر عمله بدءَ فكرته . فأيّة منفعة فى هذه المسئلة ، وهل يجهل أحدٌ هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة ، وهكذا جميعُ ما فى هذا الكتاب . ولو أنّ مؤلف حدّ المنطق بلغ زماننا هذا ، حتى يسمع دقائقَ الكلام فى الدّين والفقه والفرائض والنحو ، لعَدّ نفسَه من البُكْم ، أو يسمع كلامَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وصحابته ، لأيقنَ أنّ للعربِ الحكمةَ وفصلَ الخطاب ، فالحمد لله الذى أعاذ الوزير أبا الحسن . أيّده الله ، من هذه الرذيلة ، وأبانه بالفضيلة ، وحبّاه بِخِيمِ[1] السَّلَف الصالح ، ورداه رداءَ الإيمان ، وغشّاه بنوره ، وجعله هدًى فى الضّلالات ، ومصباحًا فى الظلُمات ، وعرّفه ما اختلفَ فيه المختلفون على سَنَن الكتاب والسنّة ، فقلوب الخيارِ[2] به متعلّقة ، ونفوسُهم إليه مائلة ، وأيديهم إلى الله فيه مظان القَبُول ممتدّة ، وألسنتهم بالدُّعاء له شافعة ، يهجع[3] ويستيقظون ، ويغفل ولا يغفلون ، وحقٌ لمن قام لله

---

(١) الخيم : الطبيعة والسجية . (٢) الخيار : كرام الناس .
(٣) يهجع : يرقد .

مقامه ، وصبر على الجهاد صَبْرَه ، ونوى فيه نيَّتَه ، أن يُلْبِسَه اللهُ لباسَ الضمير ، ويرديه رداءَ العمل ، ويصدر إليه مختلفات القبول ، ويسعده بلسان الصِّدق فى الآخرين ، فإنِّى رأيت كثيرًا من كتَّاب أهلِ زماننا كسائر أهله ، قد استطابوا الدَّعة ، واستوطئوا مركبَ العَجْز ، وأعْفَوْا أنْفُسَهم من كدّ النظر ، وقلوبَهم من تعب التفكّر ، حين نالوا الدَّرك بغير سَبَب ، وبلغوا البُغْيَة بغير آلة ، ولَعَمْرى كان ذاك فأين همَّة النفس ؟ وأين الأنَفَة من مجانسة البهائم ؟ وأىّ موقف أخْزَى لصاحبه من موقفِ رجل من الكتّاب اصطفاه بعضُ الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسرّه ، فقرأ عليه يومًا كتابًا ، وفى الكتاب : « ومطرنا مطرًا كثر عنه الكلأ » ، فقال له الخليفة ممتحنًا له : وما الكلأ ؟ فتردّدَ فى الجواب وتعثَّرَ لسانُه ، ثم قال : لا أدرى ، فقال : سل عنه . وفى مقام آخر فى مثلِ حاله ، قرأ على بعض الخلفاء كتابًا ذكر فيه حاضرَ طى ، فصحَّف تصحيفًا أضحك منه الحاضرين ، ومن قول آخر فى وصف بِرْذَوْن[1] أهداه : « وقد بعثتُ به إليك أبيضَ الظهر والشَّفَتين » فقيل له : لو قلت أرتم ألمظ ، قال : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندرى ، قال : إنَّما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . . .

فلمَّا أنْ رأيتُ هذا الشأن كلَّ يوم إلى نُقْصان ، وخشيتُ أن يذهبَ رَسْمُه ويعفو أثرُه ، جعلت له حظًّا من غايتى ، وجزءًا من تألبى ، فعملتُ لمُغْفِل التأديب كتبًا خِفافًا فى المعرفة ، وفى تقويم اللسان واليد ، يشتملُ كلُّ كتاب منها على فنّ ، وأعفيتُه من التَّطْويل والتَّثْقيل ، لأنشطه لتحفُّظه ودراسته ، إن فاءتْ به همَّته ، وأقيّد عليه بها ما أضلّ من المعرفة ، وأستظهر بإعداد الآلة لزمان الأدلة أو لقضاء الوَطَر ، عند

---

(١) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

تبيّن فضلِ النظر ، مع كَلال الحدّ ويَبْسِ الطّينة بالمرهفين ، وأدخله وهو الكَوْدَنُ[١] فى مِضمارِ العِتاق ، وليست كتُبنا هذه لمن لم يتعلّق من الإنسانية إلاّ بالجسم ، ومن الكتابة إلاّ بالاسم ، ولم يتقدم من الأدوات إلاّ بالقلم والدّواة . . .

ونستحبّ له أيضًا أن يترك ألفاظَه فى كتبه ، فيجعلها على قدْرِ الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يُعْطِيَ خسيسَ النّاسِ رفيعَ الكلام ولا رفيعَ النّاسِ وضيعَ الكلام، فإنى رأيتُ الكُتّابَ قد تركوا تفقُّدَ هذا من أنفسهم ، وخلطوا فيه، فليس يُفرّقُونَ بين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « فرأيت فى هكذا » وبين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « فإنى رأيت كذا » ورأيك إنما يكتب بها إلى الأكفاء[٢] والمساوين ، ولا يجوزُ أن يُكْتَبَ بها إلى الرؤساء والأساتذة ، لأنّ فيها معنى الأمر ، ولذلك نصبت ، ولا يفرّقون بين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « وأنا فعلتُ ذلك » وبين مَنْ يُكْتَبُ إليه : « ونحن فعلنا ذلك » ونحن لا يَكْتُبُ بها عن نفسه إلاّ أمراؤنا ، لأنّها من كلام الملوك والعظماء ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٣] ﴾ . . .

## بلاغة العرب

. . . فالخطيبُ من العرب إذا ارتجلَ كلامًا فى نكاحٍ أو حَمَالة[٤] ، أو تحضيضٍ أو صلح أو ما أشبهَ ذلك ، لم يَأْت به من وادٍ واحد ، بل يَفْتَنُّ فيختصرُ تارةً إرادةَ التخفيف ، ويطيلُ تارةً إرادةَ الإفهام ، ويُكرّرُ تارة إرادةَ التّوكيدِ ، ويُخفى بعضَ معانيه حتى يغمض على

(١) الكودن : البرذون . (٢) الأكفاء : الأمثال .
(٣) من مقدمة كتاب « آداب الكاتب » .
(٤) الحمالة : ما يحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة .

أكثر السَّامعين ، ويكشفُ بعَضْهَا حتى يفهمَهُ بعضُ الأعجميِّين ، ويشيرُ إلى الشيء ويُكنِّي عن الشيء . وتكونُ عنايتُه بالكلام على حسب الحال . وقدْرِ الحفل ، وكثْرةِ الحشْد ، وجلالةِ المقام .

ثم لا يأتي بالكلام كُلِه ، مُهذّبًا كلَّ التهذيب ؛ ومُصَفّى كلَّ التَّصْفِيَةِ ، بل تَجِدُهُ يمزُجُ ويشوبُ[1] ، لِيدُلَّ بالنَّاقِص على الوافِر ، وبالغَثِّ على السَّمِين . ولو جَعَلَه كلَّه نَجْرًا[2] واحِدًا لبخسَهُ بهاءه ، وسلبَهُ ماءه .

ومثل ذلك الشِّهابُ من القَبَسِ تُبْرِزُهُ للشّعاعِ ، والكوكبانِ يقترنان فينقصُ النّوران . والسِّخابُ[3] يُنْظَمُ بالياقوتِ والمَرْجانِ ، والعَقيق والعِقْيان ، ولا يُجعَلُ كُله جِنْسًا واحدًا من الرفيع الثَّمين ولا النَّفيسِ المصونِ .

وألفاظُ العربِ مبنيَّةٌ على ثمانيةٍ وعشرين حرفًا ، وهي أقصى طَوْقِ اللسان .

وألفاظُ جميعِ الأمَمِ قاصِرةٌ عن ثمانية وعشرين . ولستُ واجدًا في شيء من كلامِهم حرفًا ليس في حرفِنا إلا معدولاً عن مخرجه شيئًا ، مثلُ الحرفِ المتوسطِ مخرجَيْ القاف والكافِ ، والحرفِ المتوسطِ مَخْرَجَيْ الفاء والباء . فهذه حال العرب في مباني ألفاظِها .

ولها الإعرابُ الذي جَعَلَهُ اللهُ وشْيًا لكلامِها ، وحِلْيَةً لنظامِها ، وفارِقًا في بعض الأحوالِ بين الكلامين المتكافِئيْنِ والمعنَيَيْنِ المختَلِفَيْن ، كالفاعل والمفعولِ لا يفرقُ بينهما إذا تساوتْ حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكلِّ واحد منهما إلاّ بالإعراب . ولو أنّ قائلا قال : هذا قاتلٌ أخِي بالتّنوين ، وقال آخر : هذا قاتِلُ أخي بالإضافة ، لدلَّ التنوينُ على

(١) شاب : خلط . (٢) نجراً : لوناً ونمطاً .
(٣) السخاب : كل قلادة كانت ذات جواهر أو لم تكن .

أنه لم يَقْتُلْه ، ودلَّ حذفُ التَّنوين على أنه قد قتَله .

ولو أنَّ قارئًا قرأ : ﴿ فلا يَحْزُنْكَ قولُهُم ، إنَّا نعلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون ﴾ ، وترك طريق الابتداء بإنَّا وأعمَلَ القولَ فيها بالنصب على مذهب من ينصبُ أنَّ بالقول — كما يَنْصِبها بالظَّنِّ — لقَلَب المعنى عن جِهَتِه وأزاله عن طريقَته ، وجَعَل النبيَّ عليه السَّلام محزونًا لقولهم إنَّ اللهَ يعلمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلنون ، وهذا كُفْرٌ ممن تَعمَّده ، وَضربٌ من اللَّحن لا تجوزُ الصلاةُ به ، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوَّزوا فيه .

وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « لا يُقتل قُرشي صبرًا بعد اليوم » ، فمن رواه جزمًا أوجبَ ظاهِرُ الكلام للقرشيِّ أن لا يقتل إن ارتدَّ ، ولا يُقْتَصَّ منه إن قَتَلَ . ومن رواه رفعًا انصرفَ التأويلُ إلى الخبر عن قريش أنَّه لا يرتَدُّ منها أحدٌ عن الإسلام فيستحِقَّ القتل .

أفما ترى الإعرابَ كيف فرَّق بين هذين المعنيين .

وقد يُفرِّقون بحركةِ البناء فى الحرف الواحدِ بين المعنيين ، فيقولون : رَجُلٌ لُعْنَةٌ ، إذا كانَ يلْعنُه الناسُ ، فإذا كان هو الذى يلْعَنُ النَّاسَ ، قالوا : رجُلٌ لُعَنَة ، فحرَّكوا العين بالفتح ، ورَجُلٌ سُبَّةٌ إذا كانَ يَسُبُّه النَّاسُ ، فإن كان هو يَسُبُّ النَّاسَ ، قالوا : رجُلٌ سُبَبَةٌ وكذلك هُزْأةٌ وهُزَأةٌ ، وسُخْرَةٌ وسُخَرَةٌ . وضُحْكَةٌ وضُحَكَة ، وخُدْعةٌ وخُدَعَة .

وقد يفرِّقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرفٍ فى الكلمة حتى يكونَ تقارب ما بين اللفظين كتقاربِ ما بين المعنيين . كقولهم للماء الملح الذى لا يُشربُ إلا عند الضرورة : شَرُوب ، ولِما كان دُونَه مما قد يُتجوّزُ به : شَريب .

وكقولهم لما ارفضَّ على الثوب من البول إذا كان مثل رءوس الإبر : نَضْحٌ ، ورش الماء عليه يُجزئ من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلاً قيل له نَضْخٌ ولم

يُجزئ فيه إلاّ الغَسْلُ .

وكقولهم للقبض بأطراف الأصابع : قبصٌ . وبالكفّ : قبضٌ .

وللأكل بأطراف الأسنان : قَضْمٌ ، وبالفم : خَضْمٌ .

ولما ارتفع من الأرض : حَوْنٌ . فإن زاد قليلاً قيل : حزمٌ .

وللذى يجدُ البردَ : خَصِرٌ ، فإن كان مع ذلك جوعٌ قيل : خَرِصٌ .

وللنار إذا طفئت : هامدة ، فإن سكن اللهبُ وبقى من جمرها شيءٌ قيل : خامدةٌ .

وللقائم من الخيل : صائمٌ ، فإن كان ذلك من حَفًى أو وجًى قيل : صائن .

وللعطاء : شُكْدٌ . فإن كان مكافأةً قيل : شُكْمٌ .

وللخطأ من غير التعمد : غلطٌ . فإن كان فى الحساب قيل : غلَتٌ .

وللضّيق فى العين : خَوَصٌ . فإن كان ذلك فى مؤخّرها قيل : حَوَصٌ .

وقد يكتنفُ الشيءَ معانٍ فيشتقّ لكل معنى منها اسمٌ من اسم ذلك الشيءِ كاشتقاقهم من البطن للخَميص : مُبَطَّن ، وللعظيم البطن إذا كان خِلْقَةً : بَطِين ، فإذا كان من كثرةِ الأكلِ قيل : مِبْطان ، وللمنهوم بَطِنٌ ، وللعليل البطن : مَبْطون .

ويقولون : وجدتُ الضالّةَ ووجدتُ فى الغضب . ووجدتُ فى الحُزْن ووجدتُ فى الاستغناء ، ثم يجعلون الاسم فى الضالّة وجودًا ووِجدانًا وفى الحزن وَجْدًا ، وفى الغضبِ مَوْجِدَةً . وفى الاستغناء وُجْدًا[1] .

---

(١) « مشكل القرآن » .

# تفسير الألفاظ والحروف

ولابن قتيبة أبحاث كثيرة فى تفسير الألفاظ والحروف كتفسير اللفظ الواحد الذى يحتمل المعانى المختلفة أو تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف ، وهاك نموذجاً على كل من ذلك :

## الخيانة

الخيانة أن يُؤْتمنَ الرّجلُ على شيء فلا يؤدّى الأمانةَ فيه :

يقالُ لكلِّ خائن : سارق وليس كلُّ سارقٍ خائناً .

والقَطْعُ يجب على السَّارق ، ولا يجبُ على الخائن ، لأنّه مؤتمنٌ . قال النَّمِر بن تَوْلَب :

وإنَّ بَنى ربيعةَ بَعْدَ وَهْبٍ كَرَاعِي البَيْتِ يَحْفَظُهُ فَخَانَا[1]

ويقالُ لناقضِ العَهْد : خائن ؛ لأنه أُمِنَ بالعهد وسُكِنَ إليه فغدر ونَكَث . قال اللهُ تعالى: ﴿ وإمَّا تَخافَنَّ من قَوْمٍ خِيانَةً ﴾[2] أى نقضاً للعهد .

وكذلك قولُه : ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾[3] أى غدر ونكث .

ويقالُ لعاصي المسلمين : خائن ، لأنَّه مؤتمن على دينه . قال : ﴿ يَأَيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُونُوا أَمانَاتِكُم ﴾[4] يريد

---

(١) بعد وهب : يريد بعد خيانة وهب لأنه يذمه وقد جاء قبل هذا البيت :

يريد خيانتى وهب وأرجو من الله البراءة والأمانا

فإن الله يعلمنى ووهباً ويعلم أن سنلقاه كلانا

(٢) سورة الأنفال ٥٨ .

(٣) سورة المائدة ١٣ .

(٤) سورة الأنفال ٢٧ .

المعاصى . وقال اللهُ تعالى : ﴿ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُم تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُم ﴾[١] أى تَخونونها بالمعصية[٢].

## كاد

كاد : بمعنى هَمَّ ولم يَفْعَلْ . ولا يُقال : يَكادُ أن يفعل . إنّما يُقال : كاد يفعل . قال الله تعالى : ﴿ فذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٣] وقد جاءت فى الشعر قال الشاعر :

قد كادَ من طُولِ البِلَى أن يَمْصَحَا[٤]

وأنشد الأصمعىّ :

كادتِ النفسُ أن تفيظَ عليهِ إذْ ثَوَى حَشْوَ رَيْطَةٍ وبُرُودِ[٥]

ولم يأتِ منها إلاّ فَعَلَ يَفْعَلُ وتثنيتهما وجمعهما ، ولم يُبْنَ منها شىءٌ غير ذلك .

وقال بعضهم : قد جاءَت كاد بمعنى فَعَلَ ، وأنشد قول الأعشى :

« وكادَ يَسْمُو إلى الْجَوْزَاءِ فارْتَفَعَا »

أى سما فارتفع . قال : ومثله قولُ ذى الرُّمَّة :

ولو أن لُقْمانَ الحكيمَ تعرَّضَتْ لعَيْنَيْهِ مَيٌّ سافِرًا كادَ يَبْرَقُ

أى لو تعرّضتْ له لبَرَقَ أى : دهش وتحيَّر[٦].

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) « مشكل القرآن » باب اللفظ الواحد للمعانى المختلفة .

(٣) سورة البقرة ٧١ .

(٤) يمصح : يذهب .

(٥) فاظت نفسه تفيظ : خرجت روحه .

(٦) « مشكل القرآن » باب تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف .

## ٤ ــ ابن قتيبة الناقد

تكلم ابن قتيبة فى الشعر جيده ورديئه وصحيحه وخاطئه وأقسامه وطبقاته وترجم للشعراء وروى أخبارهم واختار نماذج من شعرهم فكان صوته من الأصوات الأولى التى لفتت الناس إلى هذا الفن كما كان كتابه « الشعر والشعراء » من المصادر الأولى فى الأدب العربى .

## أقسام الشعر

قال أبو مُحَمَّد : تدبَّرْتُ الشعرَ فوجدته أربعة أضْرُب :

١ ــ ضربٌ منه حَسُنَ لفظُه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... من كَفِّ أرْوَعَ فى عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مَهابته ... فما يُكَلَّم إلا حِينَ يَبْتَسِمُ (١)

لم يُقلْ فى الهيبة شىءٌ أحسنُ منه .

وكقول أوْس بن حَجَر :

أيَّتُها النَّفْسُ أجْمِلِى جَزَعًا ... إنَّ الَّذِى تَحْذَرِينَ قد وقَعَا

لم يبْتَدِئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا .

وكقول أبى ذؤيب :

والنَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

(١) هذان البيتان للحزين الكنانى من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان . وزعم أبو تمام فى الحماسة أنهما له فى مدح زين العابدين وزعم غيره أنهما من أبيات للفرزدق فى مدح زين العابدين . قال الأصبهانى فى الأغانى « وهو غلط ممن رواه فيهما وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل على بن الحسن عليهما السلام وله فى القضل المتعالى ما ليس لأحد » وقال أيضاً . والصحيح أنهما للحزين فى عبد الله بن عبد الملك وقد غلط ابن عائشة فى إدخاله البيتين فى تلك الأبيات وأبيات الحزين مؤتلفة منتظمة المعانى متشابهة تنبئ عن نفسها » ثم ساق أبيات الحزين .

حدّثنى الرّياشيُّ عن الأصمعى ، قال : هذا أبدع بيت قالته العرب .

وكقول حُمَيْد بن ثوْر :

أرَى بَصَرِى قد رَابَنِى بعد صحّةٍ ... وحسْبُكَ داءً أن تصِــحَّ وتَسْلَمَا

لم يُقَلْ فى الكِبَر شيءٌ أحسنَ منه .

وكقول النابغة :

كِلِينى لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبِ ... وليلٍ أُقاسِيهِ بَطِىءِ الكَوَاكِبِ

لم يبتدئ أحدٌ من المتقدّمين بأحسنَ منه ولا أغربَ .

ومثل هذا فى الشعر كثير .

ب — وضربٌ منه حَسُنَ لفظُه وحَلا ، فإذا أنتَ فتّشْتَه لم تَجِدْ هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل :

ولما قَضَيْنَا مِن مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالأركانِ من هو ماسِــحُ

وشُدَّت على حُدْبِ المَهارِى رِحالُنَا ... ولا ينظر الغادِى الذى هو رائحُ

أخذْنا بأطرافِ الأحادِيثِ بيننا ... وسالَتْ بأعناقِ المطىِّ الأباطِــحُ

هذه الألفاظُ كما ترى أحسنُ شىء مخارجَ ومطالعَ ومقاطعَ . وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدتَه : ولما قطعنا أيام مِنى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلَنا الأنْضاء[1] ومضى الناسُ لا ينتظر الغادى الرّائحَ ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارتْ المطىُّ فى الأبْطح .

وهذا الصنف فى الشعر كثير .

ونحوه قول المَعْلُوط[2] :

---

(١) الأنضاء جمع نضو وهو الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها . وعالينا إبلنا الأنضاء أى اعتلينا الإبل المزيلة من مشاق الرحلة .

(٢) هو المعلوط بن بدل السعدى ويروى هذان البيتان لجرير فى قصيدة يهجو بها الأخطل . والبيت الثانى فى ثلاثة أبيات للمعلوط فى حماسة أبى تمام وهما فى الأغانى وروى فيه بإسناده عن ابن قتيبة : «أن هذين البيتين للمعلوط وأن جريراً سرقهما منه وأدخلهما فى شعره» .

إن الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادروا ... وَشَلاً بعينك ما يزالُ مَعِينا(١)
غَيَّضْنَ من عبراتهنّ وقُلْنَ لي ... ماذا لقيتَ من الهوى ولَقِينا

ونحوه قول جرير :

يا أختَ ناجيةَ السَّلامُ عليكُمُ ... قبلَ الرحيلِ وقبلَ لَوْمِ العُذَّلِ
لو كُنتُ أعْلَمُ أن آخر عَهْدِكُمْ ... يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفْعَلِ

ج — وضربٌ منه جاد معناه وقصُرتْ ألفاظُه عنه ، كقول لَبيد ابن ربيعة :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه ... والمرءُ يُصْلِحُه الجليسُ الصَّالحُ

هذا وإن كان جيِّد المعنى والسَّبْك فإنه قليل الماء والرَّونَق .

وكقول النَّابغة للنعمان :

خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ(٢)

قال أبو محمد : رأيت علماءَنا يستجيدون معناه ، ولستُ أرى ألفاظه جيادًا ولا مُبِيِّنَةً لمعناه ، لأنه أراد : أنت في قدرتك عليَّ كخطاطيفَ عُقْفٍ يُمَدُّ بها . وأنا كدلْوٍ تُمدُّ بتلك الخطاطيف . وعلى أني أيضًا لستُ أرى المعنى جيدًا .

د — وضربٌ منه تأخر معناهُ وتأخَّر لفظُه . كقول الأعشى في امرأة :

وفُوها كأقاحيَّ ... غذاهُ دائمُ الهَطْلِ
كما شِيبَ براحٍ با ... ردٍ من عَسَلِ النَّحْلِ

وكقول الخليل بن أحمد العروضي :

إنّ الخليطَ تَصدَّعْ ... فطِرْ بدائكَ أوْ قَعْ
لولا جوارٍ حِسانٌ ... حورُ المدامعِ أرْبَعْ
أمُّ البنينَ وأسما ... ءُ والرَّبابُ وبوزَعْ

---

(١) الوشل : من الدمع يكون القليل والكثير .

(٢) الحجن : جمع أحجن وهو المعوج .

لقلتُ للرَّاحل ارْحَلْ إذا بدا لَكَ أو دَعْ

وهذا الشعر بيِّنُ التكلف ردىءُ الصَّنعة، وكذلك أشعارُ العلماء، ليس فيها شيءٌ جاءَ عن إسْماحٍ وسهولة كشعر الأصْمَعيِّ وشعر ابن المقفَّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمرَ فإنه أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا. ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا (أمُّ البنين) و (بوْزَع) لكفاه!

## عيوب الشعر

### ا — الإقواء :

قال أبو محمَّد : كان أبو عمرو بن العَلاء يذكر أن الإقواء هو اختلاف الإعرابِ فى القوافى، وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعةٌ وأخرى مخفوضةٌ كقول النابغة :

قالتْ بَنُو عامرٍ خالُوا بنى أسَدٍ يا بُؤْسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ

وقال فيها :

تَبْدُو كواكِبُهُ والشمسُ طالعَةٌ لا النّورُ نورٌ ولا الإظْلامُ إظلامُ

### ب — السناد :

والسناد هو أن يختلف أردافُ القوافى كقولك : «علَيْنا» فى قافيةٍ «وفينا» فى أخرى، كقول عمرو بن كُلْثُوم :

• ألا هُبِّى بصَحْنِكِ فاصْبَحينا •

فالحاء مكسورة. وقال فى آخر :

• تصفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنا •

فالراء مفتوحة وهى بمنزلة الحاء.

ج – الإيطاء :

والإيطاءُ هو إعادة القافية مرّتين وليس بعيب عندهم كغيره .

د – الإجازة :

اختلفوا فى الإجازة . فقال بعضُهم : هو أن تكون القوافى مقيَّدةً فتختلفُ الأردافُ كقول امرئ القيس :

* لا يدّعى القــومُ أنى أفِرّْ *

فكسر الرّدْفَ ، وقال فى بيت آخر :

* وكِنْدَةُ حَوْلى جميعًا صُبُرْ *

فضمّ الرّدْف . وقال فى بيت آخر :

* ألحَقْتُ شَرًّا بشَرّْ *

ففتح الرّدْف .

وقال الخليل بن أحمد : هو أن تكونَ قافيةٌ ميماً والأخرى نونًا ، كقول القائل :

يا رُبَّ جَعْدٍ منهمُ لو تَدْرِينْ يضرِبُ ضَرْبَ السَّبِطِ المقادِيمْ[1]

## بناء القصيدة

قال أبو محمد : وسمعتُ بعضَ أهْلِ الأدبِ يذكُرُ أنَّ مُقَصَّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمنِ والآثارِ ، فبكى وشكا ، وخاطبَ الرَّبْعَ ، واستوقفَ الرّفيقَ ، ليجعل ذلكَ سببًا لذكر أهلها

(١) ذكر ابن قتيبة بعد ذلك من عيوب الشعر : العيب فى الإعراب ، ومد المقصور ، وعدم صرف المصروف ، واستعمال الوحشى من الكلام أو استعمال اللغة القليلة فى العرب ، أو الأساليب التى لا تصح فى الوزن ولا تحلو فى الأسماع وضرب لذلك كله الأمثلة من كلام بعض الشعراء .

الظَّاعنين عنها ، إذ كان نازِلةُ العَمَدِ (١) فى الحلول والظَّعْنِ على خلاف ما عليه نازلةُ المدَر ، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتَتَبُّعِهم مساقطَ الغيثِ حيث كان . ثمّ وَصَل ذلك بالنسيب ، فشكا شدّةَ الوجد وألمَ الفراقِ ، وفَرْط الصبابة والشّوقِ ليُميلَ نحوه القلوبَ ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعِى إصغاءَ الأسماعِ ، لأن التشبيبَ قريبٌ من النفوس ، لائطٌ بالقلوب ، لما جعل الله فى تركيب العبادِ من محبّةِ الغَزَل وإلْفِ النساءِ ، فليسَ يكادُ أحدٌ يخلو من أن يكون مُتعلّقًا منه بسبب ، وضاربًا فيه بسَهْم ، حلالٍ أو حرام . فإذا استوثق من الإصغاءِ إليه ، والاستماعِ له ، عَقَّبَ بإيجاب الحقوق ، فرحَلَ فى شعره ، وشكَا النصبَ والسَّهرَ ، وسُرَى الليل ، وحَرَّ الهجيرِ ، وإنضاءَ الراحلةِ والبعيرِ . فإذا علمَ أنه أوجبَ على صاحبه حقَّ الرَّجاءِ وذِمامةَ (٢) التأميل ، وقرَّرَ عنده ما ناله منَ المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزَّهُ للسَّماحِ ، وفضَّلَهُ على الأشباهِ ، وصَغَّرَ فى قدرِهِ الجزيلَ .

فالشاعرُ المُجيدُ من سلك هذه الأساليب ، وعدَّل بين هذه الأقسامِ فلم يَجْعلْ واحدًا منها أغْلَبَ على الشعر ، ولم يُطِلْ فيُمِلَّ السامعين ، ولم يقطع وبالنفوسِ ظَمأ إلى المزيد .

فقد كان بعضُ الرُّجَّازِ أتى نَصْرَ بنَ سَيَّار والىَ خراسانَ لبنى أمية ، فمدحه بقصيدة ، تَشْبِيبُها مائةُ بيت ، ومديحُها عشرةُ أبيات . فقالَ نصرٌ : واللهِ ما بقَّيْتَ كلمةً عَذْبةً ولا معنًى لطيفًا إلا وقد شغلتَه عن مديحى بتشبيبِك ، فإن أردت مديحى فاقتصدْ فى النسيب ، فأتاه فأنشده :

---

(١) نازلة العمد : هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين ينتقلون بأبنيتهم ، وبنحو ذلك فسر الفراء قوله تعالى ( إرم ذات العماد ) « أنهم كانوا أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم » .

(٢) الذمامة : الذمام وهو الحق والحرمة .

هل تعرفُ الدارَ لأمِّ الغَمْرِ  دع ذا وحَبِّرْ مدحةً فى نَصْرِ

فقال نصر : لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين .

## الشعراء المتأخرون وبناء القصيدة

وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدّمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزلٍ عامر ، أو يبكى عند مُشَيَّدِ البنيان ، لأن المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثِر ، والرسم العافى . أو يرحَل على حمارٍ أو بَغْل ويصفُها لأنّ المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العِذابِ الجوارى ، لأن المتقدّمين وردوا على الأواجن الطَّوامى[1]. أو يقطع إلى الممدوحِ منابتَ النَّرْجس والآس والورد ، لأن المتقدّمين جَرَوْا على قطع منابتِ الشيح والحَنْوَةِ والعَرارَةِ[2].

## دواعِى الشعر وبواعثه

وللشعر دواعٍ تحثُّ البطىءَ وتبعثُ المتكلِّف ، منها الطمع ، ومنها الشوقُ ومنها الشَّرابُ ، ومنها الطربُ ومنها الغضبُ .

وقيل للحطيئة : أىُّ الناسِ أشْعَرُ ؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسانُ حيَّة فقال : هذا إذا طمع .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخُرَيْمِىّ : مدائحكَ لمحمد بن منصور بن زياد ، يعنى كاتبَ البرامكة ، أشعر من مراثيكَ فيه وأجْوَد . فقال : كُنَّا يومئذ نعملُ على الرَّجاءِ ، ونحن اليومَ نعمل على الوفاءِ ،

---

(١) أجن الماء : تغير لونه وطعمه .

(٢) الشيح : نبات أنواعه كثيرة كله طيب الرائحة . والحنوة : نبات سهلى طيب الريح . والعرارة : نبت طيب الريح أيضاً وقال ابن برى هو النرجس البرى .

وبينهما بَوْنٌ بعيد .

وهذه عندى قصّة الكُمَيْت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب ، فإنه كان يتشيَّع ، وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أميَّة أجودُ منه فى الطالبيِّين ، ولا أرى علَّة ذلك إلا قوّة أسبابِ الطمع وإيثار النفس لعاجل الدُّنيا على آجلِ الآخرة .

وقيل لكُثيِّر : يا أبا صخرٍ كيف تصنع إذا عسُر عليك قولُ الشعر؟ قال : أطوفُ فى الرِّباع الخلية والرِّياض المُعْشِبة ، فيسُهل علىَّ أرْصَنُه ، ويسرع إلىَّ أحسنُه . ويقال أيضًا إنَّه لم يُسْتَدْعَ شارد الشعرِ بمثل الماءِ الجارى والشَّرف[1] العالى والمكانِ الخضرِ الخالى .

وقال عبد الملك بن مروان لأرْطأة بن سُهَيَّة : هل تقول الآن شعرًا ؟ فقال : ما أشربُ ولا أطربُ ولا أغضبُ ، وإنما يكون الشعرُ بواحدة من هذه .

وللشعرِ تاراتٌ[2] يبعُد فيها قريبُه ، ويستصعب ريِّضُه ، وكذلك الكلام المنثورُ فى الرسائل والمقاماتِ والجوابات ، فقد يتعذّرُ على الكاتب الأديبِ ، وعلى البليغِ الخطيب . ولا يُعرفُ لذلك سَبَبٌ ، إلا أن يكون من عارض يعترضُ على الغريزة من سوءِ غذاء أو خاطرٍ غمٍّ .

وكان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم ، وربَّما أتت علىَّ ساعةٌ ونزعُ ضرسٍ أسهلُ علىَّ من قول بيت .

وللشعر أوقاتٌ يسرعُ فيها أتيُه ، ويسمحُ أبيُّه ، منها أولُ الليل قبل تَغشّى الكرى ، ومنها صدرُ النهارِ قبل الغدَاءِ ، ومنها شربُ الدواء ، ومنها الخلوةُ فى الحبْس والمسيرِ .

ولهذه العللِ تختلفُ أشعارُ الشاعرِ ورسائل الكاتب .

---

(١) الشرف : المرتفع من الأرض .
(٢) فى بعض النسخ : أوقات .

## المتكلّف والمطبوع

ومن الشعراء المتكلّف والمطبوع. فالمتكلّفُ هو الذى قَوّم شعره بالثِّقاف ونقّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظرَ بعد النظر. كزهير والحطيئة، وكان الأصمعىّ يقول: زهيرٌ والحطيئةُ وأشباههما عبيدُ الشعر لأنهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول: خيرُ الشعر الحولىُّ المحكَّكُ. وكان زهير يُسمّى كُبَرَ قصائده الحوليّات.

وقال عدى بن الرقاع:

وقصيدة قد بتُّ أجمعُ بينَها حتّى أقوّمَ مَيْلَها وسِنادها
نَظَرَ المثقِّفِ فى كُعُوب قناته حتّى يُقيمَ ثِقَافُه مُنَادَهَا[1]

والمتكلَّفُ من الشعر وإن كان جيدًا مُحكمًا فليس به خفاءٌ على ذوى العلم لتبيُّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكُّر وشدّة العناء، ورَشْح الجبين. وكثرة الضّرورات، وحذف ما بالمعانى حاجةٌ إليه، وزيادة ما بالمعانى غِنى عنه. كقول الفرزدق فى عمر بن هُبَيْرَة لبعض الخلفاء[2]:

أوَلّيْتَ العِـراقَ ورافِدَيْهِ فَزَارِيًّا أحَذَّ يدِ القَميصِ

يريد: أوليتها خفيف اليد، يعنى فى الخيانة، فاضطرته القافيةُ إلى ذكر القميص.

وتتبيَّنُ التكلُّفَ فى الشعرِ أيضًا بأن ترى البيتَ فيه مقرونًا بغير جاره، ومضمومًا إلى غير لِفْقِه، ولذلك قال عمرُ بنُ لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعرُ منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأنى أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمّه.

---

(١) الثقاف: آلة تثقف أى تقوم بها الرماح.

(٢) يخاطب بها يزيد بن عبد الملك.

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجزَه وفى فاتحته قافيتَه ؟ وتبينْتَ على شعره رونَق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتُحِن لم يتلعثَمْ ، ولم يتزحَّر[1].

والشعراء أيضًا فى الطبع مختلفون : منهم من يسهُلُ عليه المديح ويعسُرُ عليه الهجاء . ومنهم من يتيسَّرُ له المراثى ويتعذَّرُ عليه الغزلُ . وقيل للعجَّاجِ : إنك لا تحسنُ الهجاء فقال : إن لنا أحلامًا تمنعُنا من أن نُظلَم ، وهل رأيت بانيًا لا يُحسنُ أن يهدم ؟

وليس هذا كما ذكر العجَّاجُ ، ولا المثلُ الذى ضربه للهجاء والمديح بشكل لأن المديح بناءٌ والهجاءَ بناءٌ ، وليس كلُّ بانٍ يضرب بانيًا بغيره . ونحن نجد هذا بعينه فى أشعارهم كثيرًا . فهذا ذو الرُّمَّة أحسنُ النَّاس تشبيهًا ، وأوصفُهم لرملٍ وهاجرة وفلاة وماء وقُرادٍ ، وحيَّة ، فإذا صارَ إلى المديح والهجاء خانه الطبعُ . وذاك أخَّره عن الفحولِ ، فقالوا فى شعره : أبعارُ غِزْلانٍ ونُقَطُ عروس ، وكان الفرزدق زيرَ نساء وصاحبَ غزل ، وكان مع ذلك لا يُجيدُ التَّشبيبَ . وكان جريرٌ عفيفًا عِزهاةً[2] عن النساءِ ، وهو مع ذلك أحسنُ الناس تشبيبًا . وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه مع عفَّته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقَّة شعره لما تَرَوْنَ .

---

(١) الزحير : إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

(٢) العزهاة : العزوف عن اللهو والنساء .

# تراجم الشعراء

## الخنساء

. . . دخلت خنساءُ على أمّ المؤمنين عائشة ، وعليها صِدارٌ[1] لها من شَعر ، فقالت لها عائشة رضى الله عنها : يا خنساءُ إنّ هذا لَقبيح ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فما لبستُ هذا ، قالت : إنّ له قصّةً ، قالت : فأخبريني ، قالت : زوّجني أبي رجلاً ، وكانَ سيِّداً معْطاءً ، فذهبَ مالُه ، فقال لي : إلى مَنْ يا خنساءُ ؟ قلتُ : إلى أخي صخر ، فأتيناه ، فقسمَ مالَه شطرين ، فأعطانا خيرهما ، فجعل زوجي أيضًا يُعطي ويَحْمِلُ ، حتّى نفِدَ مالُه ، فقال : إلى مَنْ ؟ فقلت : إلى أخي صخر ( فأتيناه ) فقسمَ مالَه شَطرين ، فأعطانا خيرهما ، فقالت امرأته : أما ترضى أن تعطيَها النصفَ حتى تُعطيَها أفضلَ النّصفَيْن ؟ فأنشأ يقول :

واللهِ لا أمنحُها شِرارَهــا ولو هلكتُ مزّقتْ خِمارَها
وجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدارَها

فذلك الذى دعاني إلى أن لبستُ هذا حين هلك .

وكانت تقف بالموْسِم فتسَوِّمُ هودَجَهَا بسُومة[2] ، وتُعاظِمُ العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخَوَيْهَا صخر ومعاوية ابنى عمرو ، وتُنشدهم فتُبكى الناسَ .

وكان أبوها يأخذ بيدَىْ ابنيه صخر ومعاوية ، ويقول : أنا أبو خيرَىْ مُضرَ ، فتعترف له العربُ بذلك ، ثم قالت الخنساء بعد ذلك كنتُ أبكى

---

(١) الصدار : ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة ، وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأحدت عليه لبست صداراً من الصوف .

(٢) سومة : علامة .

لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار .

وممّا سبقت إليه قولُها :

أشمُّ أبلجُ تأتَمُّ الهُداةُ بــه كأنه علمٌ فى رأسِه نار(١)

## جميلُ بن معمر العذرى

هو أحد عشّاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بُثَيْنَة ، وهما جميعاً من عُذْرَة . . .

والجمال فى عُذْرَة والعشق كثيرٌ ، قيل لأعرابى من العذريّين : ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تَنماثُ(٢) كما ينماثُ الملح فى الماء ؟أما تَجلّدون(٣)؟! قال : إنّا لننظر إلى محاجر أعينٍ لا تنظرون إليها ! . وقيل لآخر : ممّن أنت ؟ فقال : من قوم إذا أحبّوا ماتوا ، فقالت جاريةٌ سمعته : عذرىٌّ وربِّ الكعبة !

وعشق جميلٌ بثينة وهو غلامٌ ، فلما كَبِرَ خطبها فَرُد عنها ، فقال الشعر فيها وكان يأتيها سرًّا ، ومنزلها وادى القُرى ، فجمع له قومها جمعاً ليأخذوه إذا أتاها ، فحذّرته بثينةُ ، فاستخفى وقال :

ولو أنّ ألفًا دون بَثْنَةَ كلُّهُمْ غيارَى وكلٌّ حاربٌ مُزْمِعٌ قَتْلِى
لحاولتُها إمّا نهارًا مُجاهرًا وإمّا سُرَى ليلٍ ولو قُطِعَتْ رِجلِى

وقال كُثَيِّرٌ : قال لى جميلٌ : خُذْ لى موعدًا من بثينة ! قلت له : هل بينك وبينها علامةٌ ؟ فقال لى : عهدى بها وهم بِوادِى الدوْمِ يَرْحَضُون ثيابهم ، فأتيتُهم فأجدُ أباها قاعدًا بالفناء ، فسلّمتُ فردّ ، وحادثته

(١) انظر فى مجموعة نوابغ الفكر العربى كتاباً عن « الخنساء » بقلم الدكتورة بنت الشاطىء .

(٢) تنماث : تذوب .

(٣) تجلدون : تتجلدون ، حذفت التاء الأولى للتخفيف أى تصبرون .

ساعةً حتى استنشدني فأنشدتُه :

فقلتُ لها : يا عزّ أرسلَ صاحبي　　على نأْيِ دارٍ ، والموكَّلُ مُرْسَلُ
بأن تجعلي بيني وبينكِ موعداً　　وأن تأمريني بالذى فيه أفعلُ
وآخرُ عهدٍ منك يومَ لقيتِني　　بأسفلِ وادي الدَّوْمِ والثوبُ يُغْسَلُ

فضربتْ بُثينة الخِدْرَ وقالت : اخْسَأْ ! فقالَ لها أبوها : مَهْيَمْ يا بثينةُ[1] ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا نوّمَ الناسُ من وراء هذه الرّابية . قال : فأتيتُ جميلاً فأخبرته أنّها واعدته وراءَ الرّابية إذا نوّمَ الناسُ . . .

(١) مهيم : كلمة يمنية يستفهم بها ، معناها : ما أمرك وما شأنك .